القرآنُ الكريم في زمن العولمة

نعمان جُغيم*

نظمت كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا يوم ٢٠٠٢/٧/٢٣ يوماً دراسياً تحت عنوان "القرآن الكريم في زمن العولمة: القرآن مصدراً للهداية" بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لوفاة المفكر الجزائري مالك بن نبي.

وقد اشتمل اليوم الدراسي على أربع جلسات ألقيت فيها ثمان محاضرات توزعت على الفترتين الصباحية والمسائية.

تضمت الجلسة الافتتاحية كلمة لعميد كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية رحب فيها بالحاضرين، ثم تلتها كلمة لرئيس الجامعة تحدث فيها عن الحاجة إلى مثل هذه الملتقيات والأيام الدراسية خاصة حول القرآن الكريم، والاستلهام من نبعه سعياً إلى حل المشكلات التي تعترض الأمة ومواجهة تحديات هذا العصر، ثم تحدث عن حياة مالك بن نبي الذي عاش جزءاً كبيراً من حياته في عرين الحضارة الغربية وتحت نفوذ ما يسمى بحركة التنوير التي شهدتها أوروبا، ولكن مالك بن نبي لم ينبهر بالحضارة الغربية إلى درجة الانصهار فيها والسقوط ضحيتها، بل استلهم منها إيجابياتها محاولاً أن يستفيد منها في العالم الإسلامي، كما خاض في حوار معها من منطلق إسلامي مع الاستفادة من آلياتهم ومعارفهم.

---

* دكتوراه في أصول الفقه من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وأستاذ مساعد بقسم الدراسات العامة في الجامعة نفسها.

ثم تلت ذلك كلمة داتؤ الدكتور عبد الحميد عثمان المستشار الديني لدى رئيس وزراء حكومة ماليزيا، افتتحها بشكر القائمين على الجامعة واللجنة المنظمة لهذا اليوم الدراسي. ثم تحدث عن أهمية الدراسات القرآنية وخطورة الخطأ في فهم وتأويل النصوص القرآنية وما ينتج عن ذلك من خلافات بين المسلمين تؤدي أحياناً إلى النـــزاع ومن ثَمَّ إضعاف قوتهم وزوال ريحهم. ثم أعطى مثالاً لذلك مما شاع بين عامة الناس من أن الرجل الصالح هو الذي يقضي أوقاته في العبادة فقط، في حين لا تعطى هذه الرتبة للمسلم الذي يعنى بعمارة الأرض والسعي إلى خدمة المجتمع وتحقيق الرفاه الاجتماعي، كما تحدث عن بعض الآثار السلبية للعولمة وما سيعانيه الاقتصاد الماليزي نتيجة لذلك.

وفي النهاية أعلن عن الافتتاح الرسمي لليوم الدراسي. ثم تلا ذلك عرض موجز لحياة مالك بن نبي وآثاره العلمية.

أما الجلسة الأولى التي ترأسها الأستاذ المشارك الدكتور تميم أسامة - نائب العميد للشؤون الأكاديمية - فقد تضمنت محاضرتين: الأولى للأستاذ محمد الطاهر الميساوي بعنوان: "الظاهرة القرآنية: رد حكيم على تحديات الفلسفة اللادينية الغربية الحديثة". بين فيها أن مالك بن نبي كان على وعي كامل بما كانت تحمله الحضارة الغربية في عصره من أفكار وفلسفات. فعلى الرغم من كونه متخصصاً في علم من العلوم التطبيقية (الكهرباء) إلا أنه كان صاحب باع واسع في علم مقارنة الأديان والفلسفة، وقد تجلى ذلك في مقارنته بين القرآن الكريم والتوراة، كما وظّف مالك بن نبي ما توصلت إليه العلوم الاجتماعية والنفسية لتفسير ظاهرتي الوحي والنبوة.

وفيما يتعلق بالمواجهة المزعومة بين الدين والعلم، يرى مالك بن نبي أن هذه المواجهة هي فرق بين نظرتين مختلفتين للعالم والحقيقة: النظرة الميتافيزيقية والنظرة المادية. فالأمر ليس مواجهة بين الدين والعلم، بل هو صراع بين نظرتين: إحداهما تنظر إلى الإنسان على أنه كائن مادي بحت وتريد أن تفصله عن الجانب الروحي ومصدره، والأخرى تنظر إلى الإنسان على أنه يتكون من جانبين: مادي وروحي، وأن إهمال أي واحد منهما يعد خطأ قاتلاً.

أما المحاضرة الثانية فكانت فقد ألقاها الأستاذ المشارك الدكتور محمد حازم شاه من قسم العلوم والدراسات التكنلوجية بكلية العلوم، جامعة ملايا، بعنوان: العولمة وصناعة المعرفة: النشاط العلمي المعاصر والمنظور القرآني. تحدث فيها عن محاولة

البعض إبعاد المعرفة الدينية عن الحياة اليومية للناس والحياة العلمية خصوصاً، من خلال محاولة إظهار عدم حاجة الناس في عصر العلم والثورة التكنولوجية إلى مثل هذه العلوم، هذا من جهة ومن جهة أخرى محاولة إظهارها بمظهر المعارض أو المناقض للعلم. كما تحدث عن تاريخ العلوم عند المسلمين، والتزاوج الذي وقع بينها في التاريخ الإسلامي دون أي تعارض أو صراع. وأشار إلى فكرة التوفيق بين الدين والعلوم الكونية بأنها ليست ظاهرة خاصة بالمسلمين، بل عُرفت في الغرب أيضاً وسلكها كثير من فلاسفتهم. وتحدث أيضا عن محاولة الغرب الاستعماري - سواء الاستعمار العسكري أو الاقتصادي المعاصر - فرض مفاهيمه وفلسفته على الشعوب الضعيفة المستعمرة بغض النظر عن مدى قوة وضعف تلك الأفكار.

أما الجلسة الثانية التي ترأسها الدكتور جمال بادي، فقد تضمنت محاضرتين: الأولى للدكتور محمد بن نصر بعنوان: القيم بين العولمة والعالمية في ضوء القرآن الكريم، حيث تحدث فيها عن التحديات التي واجهها العالم الإسلامي في عصر العالمية، ثم التحديات التي يواجهها الآن في عصر العولمة. ورأى أن مواجهة تحديات العولمة أيسر مما عاناه المسلمون في مواجهة تحديات العالمية على الرغم من كل الضعف الذي يعيشه العالم الإسلامي.

وعلل ذلك بأن عصر العولمة على الرغم مما ساده من استعمار وظلم تميز بتقديم قيم مغرية يفتقدها العالم الإسلامي في واقع حياته، وإن كان يمتلكها نظرياً، وهي قيم الحرية والعقلانية، وإعطاء قمية للإنسان بوصفه إنساناً واحترام حقوقه الطبيعية، ولذلك كانت فلسفة مغرية ومواجهتها صعبة.

أما العولمة فإنها حركة تفرض نفسها على الآخرين وتدعي أنها عالمية، ولاحظ المحاضر أن أهم ميزة تتميز بها العولمة هي الاتصال، حيث إنها استطاعت أن تربط الناس في مختلف أرجاء العالم ببعضهم البعض، وجعلت العالم حقاً قرية صغيرة، ولكنها في الوقت ذاته فشلت في إيجاد التواصل بين الناس، بل إنها تسهم بشكل كبير في قطع التواصل بين الناس، فأصبحت تجد جارين يفصل بينها جدار يجوب كل واحد منها أرجاء المعمورة ويتصل بالناس على بعض آلاف الأميال ولكنه يفشل في التعرف على جاره ومعرفة أحواله ناهيك عن زيارته. وبناءً على ذلك يرى المحاضر أن قيم العولمة يمكن إدراجها ضمن فلسفة اللامعنى. ومادام العالم الإسلامي لا يمكنه أن ينافس الغرب في المجالين التقني والاقتصادي، فإنه عليه أن يخوض غمار المنافسة من باب القيم، حيث يمكنه أن يقدم بديلاً في مجال القيم والأخلاق.

أما المحاضرة الثانية فكانت من إلقاء الدكتور عبد العزيز برغوث بعنوان: رؤية مالك بن نبي لمفهوم الحضارة العالمية بوصفها وحدة للتحليل، حيث تحدَّث فيها عن أهمية الوعي الحضاري لدى المسلمين، وضرورة اطلاعهم على ما يدور حولهم في العالم، والسعي إلى فهم الآخرين واستيعاب فكرهم وفلسفتهم في الحياة من أجل التمكن من التعامل معهم بالطريقة المناسبة. فالمسلم لم يعد بإمكانه العيش بمعزل عن الحضارة العالمية والتفاعل معها في زمن العولمة الذي يسعى إلى فرض الأفكار والقيم الغربية على الغير. ثم تحدث عن قانون الدورات الحضارية الذي كان يعتقد أن الحضارة تبدأ بمرحلة الروح، ثم العقل، ثم المادة، ثم هجرة الحضارة وسقوطها، وأن هذا المفهوم عند مالك بن نبي لم يعد مقبولاً، حيث يرى أن مفهوم الدورة الحضارية قد تغير.

يرى مالك بن نبي أن هذا المفهوم كان قديماً لما كانت الحضارة غاية يسعى إليها الناس، وكانت كل حضارة تعيش بمعزل عن الحضارات الأخرى فإذا خمدت طاقة ذلك الشعب سقطت حضارته، أما الآن فإن الحضارة لم تعد غاية، بل صارت أمراً واقعاً يعيشه كل الناس في العالم، فقد صارت الحضارة إرثاً مشتركاً بين مختلف الشعوب والأمم، ومن ثم فإن قانون الدورات الحضارية لم يعد له داع أو معنى.

ثم تحدث عن اقتراح مالك بن نبي تجاوز وحدات القبيلة أوالمجتمع أو الحضارة المحلية بوصفها وحدات للتحليل إلى وحدة جديدة هي الحضارة العالمية، لتصير هي وحدة التحليل بدل الوحدات القديمة.

أما الجلسة الثالثة التي ترأسها الدكتور أسلم حنيف فقد ألقيت فيها محاضرتان الأولى للأستاذ عثمان المحمدي بعنوان: أزمة الإنسان الروحية في مواجهة العولمة: وجهة نظر قرآنية. تحدث فيها الأزمة الروحية التي تعيشها الإنسانية منذ مدة وتعمقها العولمة يوماً بعد يوم، وموقف الإسلام منها، والحل الذي قدمه الإسلام لمعالجة هذه الأزمة والنهوض بالروح الإنسانية والسمو بها.

أما المحاضرة الثانية فكانت من تقديم الأستاذ المشارك الدكتور إبراهيم زين، بعنوان: قصة النبي يوسف عليه السلام بين التوراة والإنجيل: دراسة نقدية في المنهج القصصي لمالك بن نبي تحدث فيها عن المقارنة التي عقدها مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية بين قصة يوسف في التوراة والقصة ذاتها في القرآن الكريم، حيث بين أن سياق القصة يخالف بعض الوقائع التاريخية مما يوحي بأن الرواية التوراتية دخلها كثير من التحريف

على يد أحبار بني إسرائيل، ومن أمثلة ذلك ما ذكرته التوراة من أن العير التي أقبل فيها إخوة يوسف عليه كانت تتكون من الحمير، وهو أمر مخالف لطبيعة حياة بني إسرائيل في ذلك الوقت إذ أنهم كانوا بدوا يعيشون في الصحراء وكانت رحلتهم من فلسطين إلى مصر عبر صحراء سيناء رحلة طويلة، وأهل الصحراء لا يستعملون في تنقلهم عادة الحمير بل الجمال، فضلاً عن أن الحمير لا تقوى على تلك الرحلة الطويلة.

أما الجلسة الأخيرة التي ترأسها الدكتور حزيزان نون فقد توجت بمحاضرتين: كانت الأولى من تقديم الدكتور إسرار أحمد خان بعنوان: انسجام النص القرآني: مبادئ التطبيق، تحدث فيها عما يتصف به النص القرآني من انسجام وتكامل بين نصوصه المتنوعة، وأن إغفال هذه الحقيقة خطأ جسيم وقع فيه بعض مفسريّ ودارسي القرآن الكريم، وأن تناول النصوص القرآنية وكأنها أجزاء منفصل بعضها عن بعض، يؤدي إلى قصور في فهم النص القرآني. ويرى المحاضر أن أهم المبادئ التي ينبغي تطبيقها من أجل الوصول إلى فهم متكامل ومتناسق للنصوص القرآنية ما يأتي: ١ - تحديد المحور الأساسي للسورة. ٢ - جمع مختلف المقدمات التي تناولتها السورة. ٣ - تحديد المخاطبين في السورة مما يعين على وضع النصوص في سياقها. ٤ - ربط الآية بالآيات السابقة واللاحقة لها. ٥ - التعرف على الإطار التاريخي والاجتماعي للواقع الذي نزلت فيه السورة. ٦ - تعيين المحاور الأساسية للسورة. ٧ - تبني مبدأ تفسير القرآن بالقرآن.

أما المحاضرة الأخيرة فقد كانت من إلقاء الدكتور المصطفى تاج الدين بعنوان: بعض جوانب النظرية التأويلية عند مالك بن نبي في كتاب الظاهرة القرآنية، تحدث فيها الباحث عن عدم عناية ابن مالك بدراسة التفسير مباشرة، حتى في كتابه الظاهرة القرآنية وإن كان ظاهر عنوانه يوحي بذلك. وذكر أنّ أهم ما يميِّز أعمال مالك بن نبيّ هو جمعها بين الطروحات الفكرية التي تأصلت في التراث الإسلامي مع انفتاح الأفكار الإيجابية التي استفادها الفكر الغربي، مما جعل أفكاره تتصف بالتوازن والاعتدال فلقت القبول لدى أغلب دوائر الفكر الإسلامي؛ ثُمَّ حاول أن يُبرز معالم نظرية التأويل بصفة عامَّة، مع السعي إلى إخراج التأويل من مفهومه التقليدي.

وقد اختتم اليوم الدراسي بكلمة لرئيس الجامعة أشار فيها إلى أن مضمون اليوم الدراسي لم يكن ملبيّاً بشكل كاف لمتطلبات عنوانه، حيث لم يبرز جانب العولمة وعلاقته بالقرآن الكريم بشكل كاف، وهو الأمر الذي كان يرجى منه.